

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

نشأ محمود سامي البارودي في عصر انقطعت فيه الصلة بين الشعراء في جميع الأقطار العربية وأسلافهم القدماء انقطاعاً أخلّى أشعارهم من كل نضرة وكل رواء ، فإذا هي لثغو من القول وما يشبه اللغو ، يتكلفونها ليقدموها مدبجاً وتهنئة وتعزية لمن يظنون أنه يدفع عنهم عاديات الحياة . ومن العبث أن نبحث في هذا اللغو عن شعراً أو شعور بالجمال ، يبعث في نفوسنا اللذة الفنية ، إنما هي معان سقيمة وأساليب فاسدة زادت بها أشواك البديع وأعشابه فساداً على فساد .

ولم تكد تفتتح موهبة البارودي حتى انصرف عن هذا اللغو المنظوم إلى روائع الشعر العربي القديم يُسيفها ويمثلها بكل ألحانها وكل تصاويرها وكل معانيها وأسرارها الفنية . وسرعان ما استخلص لنفسه هذا الرحيق الصافي العذب الذي يفيض به ديوانه ، يستنده قلب ذكي وإحساس مرهف وذوق دقيق ، وهو رحيق يغذ به القديم بخير ما فيه ، ويغذيه وجدانه وعصره وقومه . وبذلك لم يعد الشعر تعبيراً سقيماً عن أغراض ضيقة لا تصور منشأ الشاعر ولا ظروفه ولا زمانه ولا أمته ، ولم يعد يجرى في ركاب صاحب سلطان أو جاه أو مال ، فهو لا يتخذ وسيلةً للأرب مادية ولا زُلفى للحكام والأثرياء ، بل يتخذ للتعبير عن أحاسيس صاحبه ومشاعر قومه تعبيراً حياً خصباً دون أي مساس بحرية صاحبه أو كرامته .

وعلى هذا النحو مضى البارودي يشب بالشعر وثبةً لم يكن يحلم بها معاصروه ولا كانت تمر بخواطرم ، وهي وثبة جعلته يعد - غير مدافع - رائد الشعر الحديث والمهد الأول لهضته ، فقد فكّه من قيوده البديعية الغليظة وأغراضه الضيقة المحصورة المتبدلة ، ووصله بروائعه القديمة وصياغتها المحكمة الكاملة ، كما

وَصَلَّه بِحَيَاتِهِ وَحَيَاةِ أُمَّتِهِ وَصَلَّاهُ مَخْلِصًا صَادِقًا أَمِينًا ، وَصَلَّاهُ يَرْقَى بِهِ إِلَى مَرْتَبَةِ الشَّعْرِ الرَّفِيعِ الَّذِي يُجْتَمَعُ الْقُلُوبُ وَالْعُقُولُ وَالْأَفئِدَةُ .

وقد رأيت أن أفرد هذا الشاعر المبدع ، الذي يُعَدُّ أَبًا للشعر الحديث ، بدراسة مفصلة ، أصور فيها عصره وحياته وشعره ومنزله . وبدأتُ بالعصر فتحدثتُ عن البعث القومي لعهد محمد علي وما أقيم دونه من عقبات ، وكيف أخذ خلفاؤه من بيته ، وخاصة إسماعيل ، يدفعون البلاد إلى هاوية الانهيار السياسي والاقتصادي ، حتى إذا كان توفيق أمم فصول المأساة باستدعائه جحافل الإنجليز لحمايته ، فاحتلوا البلاد ، ولم تلبث القوى الوطنية أن التفتت حول لواء مصطفى كامل وقاومتهم مقاومة باسلة . وعلى الرغم من هذه المحن والحطوب تابعت مصر خطى تطورها الفكرى والأدبى طوال القرن الماضى على يد صفوة ممتازة من أبنائها النابهين أمثال رفاعة الطهطاوى والشيخ محمد عبده وقاسم أمين . وأسرع النثر فى التطور ، بينما أبطأ الشعر ، حتى أتيج له البارودى ، فنهض به نهضة حررتة من أساليبه السقيمة وأغراضه الغثثة ، وعادت به إلى أساليبه الطبيعية القديمة الموثقة التى يؤدى بها الشاعر أداءً طبيعياً مستقيماً حقائق نفسه وحقائق أمته .

وانتقلت من عصر البارودى إلى حياته ، فتحدثت عن نشأته ومرباه وعكوفه على يتابع الآداب العربية وتعلمه بالمدرسة الحربية وتوظيفه بوزارة الخارجية فى الآستانة ونهسله هناك من الآداب الفارسية والتركية ، وكيف عاد إلى وطنه والتحق بسلاح الفرسان وأسسه مع بعض الكتائب المصرية فى حروب العثمانيين بجزيرة كريت . وكان يتقلب فى أعطاف الهناءة ورغد العيش ، ففاض شعره بالحمامسة والحب والخمر ووصف الطبيعة . وإلحق بعد عودته ياوراً بالقصر ، فرأى عن قُرب مبادل إسماعيل وفساد حكمه ، فنارت نفسه واضطُرَّ إلى كظم ثورته وأخذ يسرى فى شعره ضرب من الكآبة . وانتظم ثانية فى الجيش ، واشترك فى الحملة التى أرسلت لمساعدة العثمانيين فى حروبهم بالقرم والبلقان . وعاد إلى مصر وقد تلبدت سماؤها بالغيوم والنُذر ، ولم يلبث أن انضم إلى الجيش والشعب فى ثورتها على توفيق بزعامة عرابى ، ناطقاً بأمال الوطن وآلامه . وتتعاقب الأحداث ، فيحتل الإنجليز مصر ، ويسنهم فى مقاومتهم ، ويسنسى إلى سرديب ، فيظل

بها سبعة عشر عاماً كالطود الشامخ لا تهن قواه ، يتغنّى غناء حزينا يصب فيه آلامه وأوصابه . ويؤذن بأخرة له أن يعود إلى فردوسه ، ولكن قبشارة الشعر لا تلبث أن تسقط من يده ، وتنطق شعلة حياته .

وقد مضيت أصور شعره فوفقت عند العناصر المكونة لشاعريته ، وهي عناصر متشابكة ، منها ما يعود إلى موهبته الشعرية النادرة ، ومنها ما يعود إلى وراثته وتعلمه لفنون الحرب وتزوده بالآداب العربية والفارسية والتركية ، ومنها ما يعود إلى بيئته ومشاهدها الطبيعية وأمجادها التاريخية وأحداثها السياسية وتجاربه المختلفة في رحلاته ، ومنها ما يعود إلى عكوفه على روائع الشعر العربي القديم عكوفاً اكتسب في تضاعيفه السليقة العربية الأصيلة والروح العربي الصميم بكل مقوماته . ونراه في أوائل حياته ، وكأنما انطبعت في نفسه أحاسيس الفارس العربي القديم بكل ما اتصل بها من حماسة ووصف للحروب وحب وخمر وشعور بجمال الطبيعة . وتنفذ الشكوى والسياسة والمشاعر الوطنية إلى شعره منذ عمل ياوراً بالقصر ، ويرسل زفراته وزفرات أمته ناراً متأججة . ويستقى إلى سرنديب فيشدو بغناء حزين مصوراً حينه الدفين ، باكياً زوجه قرّة عينه ومن اخترمهم الموت من أصدقائه بكاء يعتصره من قلبه ، ويرفع بصره إلى السماء مبتهلاً لربه زاهداً في متاع الدنيا الزائل . وقد لاحظت أنه كان يعني عناية شديدة بصقل شعره حتى تستوي نماذجه كاملة محكمة ، وهو صقل جعله يكثر من تنقيحه ، مُدخلاً فيه كثيراً من التعديل والحذف والإضافة ، حتى يصبح بناؤه وطيداً وثيقاً ونسيجه متماسكاً متيناً . ونراه يضرم فيه روح العروبة بمحافظته على العناصر الشعرية القديمة ، مع مدّ جنباتها وتحويرها تحويراً بديعاً للتعبير عن وجدانه ووجدان قومه وما أثار في نفسه من الآداب الفارسية والتركية والمخترعات العصرية وأمجاد أمته التاريخية .

وخرجت من ذلك إلى بيان منزلته الشعرية وكيف أنه يعدّ حامل لواء الشعر العربي الحديث ، مهما اختلفت مدارسه وتفاوتت مذاهبه بين المحافظة والتجديد ، إذ يشرف عليها جميعاً وكأنه المنارة الهادية بأضوائها إلى الطريق القويم . ولا أغلو إذا قلت إنه هو الذي مكّن مصر أن ينشأ فيها شوق وحافظ وغيرهما من حواريين وأن تحتل مكان الزعامة في الشعر العربي الحديث . ومن أهم ما يروع قارئه الصدق

في تجربته الشعرية ، وحقاً كان يُبمّعن في استخدام العناصر الشعرية التقليدية غير أنه إمعانُ الرّمزِ عن الشاعر لا إمعانُ الجُمود والتقليد السقيم ، إمعانُ يزدوج فيه القديم والحديد والماضي والحاضر ليتوهج الشعر توهجاً يزيد جمالاً وروعة . ويسند الصدقَ عنده براعة تصويره للمشاهد الحسية والمعنوية . وتصويره لمشهد حنينه إلى وطنه يُعَدُّ من فرائده التي تصعد به إلى ذروة الشعر والفن . وروعته الكبرى موسيقاه التي تستحوذ على كيان سامعه برنينها الضخم المستطيل حيناً ، وحيناً آخر بألحانها العذبة الرشيقة .

وقد يعجب القارئ حين يعرف أن الجزء الثالث من ديوان هذا الشاعر الذي أكسب مصر مجداً أدبياً محققاً لما يُطَبَّع ، وهو الآن بيد الأستاذ محمد شفيق معروف يحاول إخراجه ، وكان قد اشترك مع الأستاذ على الجارم في إخراج الجزءين : الأول والثاني ، وقد أطلعني مشكوراً على هذا الجزء الذي لا يزال مخطوطاً لم يَرَ النور ، وانتفعت به . وإنه بلخدير أن يُنشرَ سريعاً وفاءً لديّن هذا الشاعر العظيم الذي حمل راية تحررنا الحديث في الشعر ، وكان من الحِمْلَةِ البَرَّة لراية تحررنا السياسي في الثورة العرابية . ولعلّي أكون بدراسته قد أدّيت بعض ما له من حقٍّ على جيلنا المعاصر . والله — وحده — وليّ العَوْن والتوفيق .

شوقي ضيف

القاهرة في ١٥ من أغسطس سنة ١٩٦٤ م .